

معرض



نتحدث عن هويات لا عن هوية. الهوية الحاسمة ليست تمسقية لأنها كذلك بطبيعتها. إنما أنت الهوية تقوم على الكسب والنقصان. في لبنان، يبدو تعريفها صعباً لتعذر دائم بالاتفاق على نقصانها. ما المكان الذي عُلمت فيه آثار في هوياتك الذي لا ديك على ذلك. في معرض «هويتك» حبر على ورق» الذي ينظمه «المعهد الفرنسي للشرق الأدنى» ومعهد العلوم السياسية في «جامعة القديس يوسف»، يبدو أننا أمام نظرة جديدة إلى الهوية. تقدمها 6 أعمال منفصلة ومرتبطة بالتيمة الأساسية. أعمال تنطلق من افتراض ملتبس تسميه «الامة اللبنانية»، لكنها أحياناً تتحرر منه في ردهة «بيت بيروت»

هويات «مفخخة» في «بيت بيروت»

قد لا يكون غريباً أن يكون المعرض بحسابات داخلية صارمة، إذ أنه ينطلق من سؤال أساسي: «ماذا يعني أن يكون المرء لبنانياً؟». ستتوزع الإجابات، وتعاد صياغة السرديات عن الهوية، ولن تكون أسهل دلالتها إلا المكان الذي تعرض فيه. ثمة مزاج عام يقضي بالاتفاق أن «بيت بيروت» الذي يقع على خط التماس القديم بين بيروت الغربية وبيروت الشرقية، يصلح أن يكون رمزاً أو دليلاً إلى الحرب. وهذا اختزالي أيضاً، لأنه يستثني رزمة عناصر من مكونات الحرب ومسبباتها، ويكتفي بالطبيعة السيميائية للمكان، كمحدد جغرافي وتاريخي لمتغيرات لا يمكن إحصاؤها. نتحدث عن الطبقات الاجتماعية وعن العلاقة بين المكان والأرياف وعن الهرمية والأبوية والخيارات الشخصية. رغم ذلك، يبقى المكان صالحاً من الناحية الرمزية لمقاربة «الهوية» خارج سياقها اللبناني. في المحصلة، رغم انبساط من سردية الأمة اللبنانية وهي فكرة مهتزة، فإن أدوات الدراسة الأساسية في المعرض، أي السجلات الإدارية والوثائق الرسمية، تجعل الفكرة مغرية، لتفسير الطبيعة القمعية للدولة. على الأرجح، يعرف أصحاب الفكرة أنها ليست كافية لإعادة النظر بالطبيعة الطائفية السائدة لقراءة اللبنانيين الحالية لهوياتهم. وصحيح أن العمل الفني يحتاج إلى هوامش متحررة من الأطر النظرية، إلا أن الباحث في الهويات الفردية لا بد من أن يقتقد عناصر كثيرة، مثل النقاش عن الموقع الطبقي أو الهوية الجنسية وأشياء أخرى، فتدافعاً للإجابات المغلقة. ذلك لا يلغي أن المعرض ينجح في تعرية الخطاب السائد، بتبينه كيفية التأطير التاريخي للهويات اللبنانية، عبر العائلة، والدولة بوصفها جهازاً، والعلاقة مع العالم كرقم خال من التمايز، لا بل كسلعة تبعد واحد.



في المعرض، للإيحاء بأهمية التبادل والتواصل أثناء تكوين الهوية، فإن ثمة إجابات أخرى للعلاقة بين الردهة بوصفها شعباً تشكل، والقاعات بما هي «مراحل». ثمة محاولة «مقصودة» غالباً، للحفاظ على العلاقة بين القيم المكتسبة وبين الثقافات الأساسية، بحيث يصير الأرمني لبنانياً في سياق، ثم في سياقات: الأرشيف يكفي للإشارة إلى لحظة قدومه. أما تطور علاقة فهدام حاجي فارتكيان بهويته، فتحتمل إلى دراسة طويلة. في الواقع، ولد فهدام في لبنان عقب الإبادة في 1923. لكنه انتقل إلى فلسطين في 1943، وبدأ حياة جديدة. ثم عاد إلى لبنان في 1948 كلاجئ فلسطيني رغم أنه يحمل الجنسية اللبنانية منذ 1925. طبعاً تتوجب الإشارة إلى أن انتقاله كلاجئ فلسطيني إلى لبنان ينقل في المصق التعريفي تحت تعريفه ببرودة. وهذا يعيد إلى نقطة البداية، أو إلى التصور اللبنانيوني عن الهوية، بحيث ثمة اعتقاد ملموس بانقطاعها عن الجغرافيا.

«أمة» لبنانية في الزمن، بينما يقدم أعمالاً تدحض الافتراض الأساسي، بدلاً من أن تشكل مادة سجالية. ما يطرحه المعرض هو إجابات، بينما الموضوع كان بحاجة إلى الكثير من الأسئلة. عموماً، وبالعودة إلى الصورة الشائعة عن الجماعات اللبنانية، لا يجب التعامل مع المعرض كدليل

سليحظ المشاهد بسهولة اختفاء المكون العربي من النقاش، والاكتفاء بالسردية اللبنانية لنشأة لبنان

إلى الصورة الناجزة عن الهوية، أو كإرشادات إلى الهوية. فالأعمال الفنية المعروضة عموماً تدور حول فكرة «الدولة»، أو حول فكرة الكيان الجامع، أكثر من دوراتها حول الثنائية الكلاسيكية لتحديد مركبات الهوية: الجماعية - الفردانية. وإن كانت القاعات المفتوحة على بعضها فكرة موفقة

اللبنانية المكتسبة. العاملة والعامل والكفالة. اللجوء إلى لبنان. مرسوم التجنيس. مواقف وأسئلة، من زاوية واحدة ومحددة: الوثائق الرسمية. يبيح هذا الافتراض، بنية حسنة مبالغ فيها، وجود هوية لبنانية تستوي على إرث مشترك بين حاملها، والأهم، مشتركات فعلية في المسألة القيمة. بيد أنه، عند الحديث عن الهوية في وقت مثل الوقت الذي نعيش فيه، يتطلب الأمر انفتاحاً متوازناً على الغربية بمجالاتها المتعددة، أكثر من الدفاع عن الخصوصية، بمعزل عن طبيعة الخصوصية المزعومة كوهم أو كحقيقة مبالغ في تقديرها. هكذا، تقدم الأعمال المعروضة عن نفسها بشجاعة، ولكنها قد تخفي قطعاً كبيرة من الحقيقة. باستثناء اللغة الحاضرة تلقائياً، سلاحظ المشاهد بسهولة اختفاء المكون العربي من النقاش، والاكتفاء بالسردية اللبنانية لنشأة لبنان، وتتبع الهوية ضمن حدود منشأته المفترضة. التذرع بموت الفلسفة، أو بإطار «غير رسمي»، ليس مقنعاً. فاللغة، حسب كثير من الباحثين في مسائل الهوية المعاصرة، ليست أداة قابلة للتحديد، فهي تحوي الأفكار وتتبع بالماضي، وهي أشبه بظل الذاكرة في الحاضر. وربما، لهذا السبب، كان اختيار «جواز السفر السوفياتي» لماياكوفسكي استعارة موفقة من الناحية الشكلية. عموماً، المعرض يحمل رفضاً للقوالب الجاهزة، المتمثلة بالبيان الإداري. وهذه مقاربة أصاب الفنانون المشاركون بترجمتها بصرياً. الحديث هنا عن الطبيعة «الجبرية» للهوية، إذا أمكننا استعارة الفكرة من تودوروف. فالذي يأتي إلى العالم يأتي مجبراً على ذلك، ويسجل قدومه على هذا الأساس أيضاً. صحيح أنه لم يكن ممكناً أن يسجل المعرض في الجانب الوجودي للهوية اللبنانية، لكن مطلقاً لا نتجسج من منهج سياسي لا اجتماعي ولا أنتروبولوجي، وإن كان الوصول إلى نفس النتائج عبر أدوات بحثية أخرى. أما القول إنه سياسي، فلأنه يفترض وجود

أحمد محسن

الردهة مفتوحة على القاعات. لا حواجز هنا. المبنى جسد واحد، ولكنه مقطوع من أجل «الخصوصية». يذكر هذا بصيغ مألوفة عن الجماعات وعن حاجة الأفراد للعيش داخل الجماعات. في «بيت بيروت» العيون مسموح بين الأجزاء ولا حاجة للتكلف والحديث عن الحرب. انتهت الحرب ولكن ماذا عن الهويات؟ في الردهة، يتحدث المعرض عن نفسه أكثر من أي مكان آخر. الردهة صلة الوصل بين القاعات، وفيها لوحة تمثل «أثر النفوس». وحسب التعريف الذي اختاره المنظمون، صناعة الأمة (المختلطة طبعاً) تتم في هذه الدائرة، حيث ينتظم الأفراد، في «أمة». ستبسم هنا، وتبحث عن «الأحوال الشخصية». فاللبنانيون ليسوا بحاجة إلى التكلف لمعرفة أنهم مجبرون على الانتظام في طوائف، وأن سيرتهم في الدولة تروى غصياً عنهم عبر سير طوائفهم. قبل الردهة، في القاعة الأولى، افتراض مفخخ ومعلن: الأمة اللبنانية. في القاعة الثانية، خطوة نوعية في المعرض: الهوية عبر الأسرة، والتصويب على ماضي الهرمية. القاعة الثالثة، الوثائق الأوراق المجانية التي كُلفت كثيراً. حبر على ورق، ربما، لكن ليس على جدران «بيت بيروت». الوثائق صامتة، الجدران تتحدث، ومتى يصير الأمر معكوساً، تنطلق الهوية. في القاعة الأخيرة، محاولة «رقمية» خارج «السياق العام»، لكنها هي الأخرى لا تستطيع التنصل من ذاكرتها الطويلة التي تتسلسل من القاعات المجاورة. ثمة مشكلة تاريخية في علم الاجتماع، تتمثل بتحديد حقيقة وجود هوية رئيسية. يمكن الاتفاق بسهولة على أن الهوية مركبة، لكن ماذا عن تراتبية المركبات؟ يقدم المعرض مواقف سياسية تدور حول المواطنة وحول الهوية. أفكار كثيرة، ليس من السهل تناولها في تظاهرة واحدة. الجنسية اللبنانية الحقيقية، والجنسية

«هويتك حبر على ورق» حتى 31 أيار (مايو). بيت بيروت (السويديكو. بيروت) - للاستعلام: 71/386310